أرقٌّ من رقراق السراب

فـــدوى القـــاسم*

١

وأخيرًا جاء يومُ الأربعاء. التقيا وجهًا لوجه بعد طول انتظار.

كان مشوارُهما قد بدأ، قبل ستة أشهر، في منتديات الدردشة، وفي إحدى غرف الحوار الخاصة، حيث عرّت أمامَه روحَها. لم يَخْطرْ ببالها أنّها ستضيع، وأنّها ستأخذ منعطفًا جديدًا، وأنّ الطريق سيلتوي بها فيأخذها إلى تفرّعات تفاؤلية متهوِّرة

فقط عندما رأته أمامها استطاعت أن تتنفس مرةً أخرى ارتمت في حضنه، كأنها تعرفه الدهرَ كلَّه أول مرة تراه، وعرفتْه فورًا عيناه، ابتسامته... إنّه عاطف، واقع وليس خيالاً، رجل دافئ، حنون، رقيق، كاسمه. قبّل يديْها المرتجفتيْن قبّل عنقَها ذابت بين شفتيه. احمرّتْ ونضجتْ أمام عينيه. ببطء عذب معذِّب، حرَّرَ جسدَها الرطبَ من سجن ملابسها أطلقتْ عبيرَها كفاكهة شهية وقعتْ آخرُ قشورها إلى الأرض. وبعطشٍ، شَرِبَ رحيقَها الأنثوي.

استَنْفِد. مات وعاش. ذابت، وامتصَّتْها خلاياه. كانت تلك هي المرةَ الأولى بالنسبة إليها، لكنّها كانت معه دون خجل أو خوف أو تردُّد. كأنّها كانت له في حياة سابقة. حَدْسُها يُرْشدها عبر مساحات رجولته. كم كانت رائحةُ جسده مثيرةً ومخدِّرة!

٢

أخيرًا جاء الأربعاء. التقيا بعد طول انتظار. ارتمت في حضنه. قَبّلها. حرّرَها من ملابسها. استنشقتْ أريجَ جسده. لم تُفْلت منهما ثانيةٌ. كأنّ الوقت اختصر نفسَه. بالأمس فقط، كانت الساعة ٦٠ دقيقةً كاملةً، فماذا جرى لها الآن؟ لقد اختُزلت الساعةُ ولم يتبقّ منها سوى بضع لحظاتٍ تكفي لسيجارةٍ مشتركة.

أصبح لقاءُ الأربعاء تواطئيًا. اتفقا عليه دونما اتفاق. ينتظرها وتنتظره. يجدها إنْ أتى، وتجده إنْ أتت. كوخ مهجور على حافة الأمواج، تختلط فيه أملاحُ جسديْهما. لا شيء ذا أهمية يحدث بين الأربعاء والأربعاء. لا شيء سوى ملء الخواء بين لقاء ولقاء. كم كانت بطيئةً تلك الأيام، وخاطفةً تلك اللقاءات!

٣

أخيرًا جاء الأربعاء. التقيا. قَبّلها. جلستْ في حضنه، وغنّت لهما مياهُ البحر المائج. حَدّثَها عن أول كتاب قرأه باختياره. كان لكاتبٍ كولمبيّ لم يكن يَعْرف كيف يَلْفظ اسمَه.

حدّثَها عن أول قبلة شاهَدَها في السينما، وكيف هجم جميعُ أبناء صفّه لمشاهدة الفيلم، وأنه لا يذكر الآن اسمَ الفيلم ولا قصتَه، لكنّه يَذْكر تفاصيل القبلة بوضوح، وأنه حاول عدةَ مرات تقليدَها مع صديقاته. كانت تَجْمع كلماتِه زهورًا بريةً، تنمو حيثما تشاء، وتضعها في إناءٍ لا تتعكّر فيه المياهُ.

كانت في حضنه طوال الوقت. وكان يمرِّر يده تحت شعرها، وعلى عنقها، وظهرها، فتحترق برغباتها . لكنّها لم تبادرْه بها، بل تتركه يتحدث إليها كيفما يشاء.

٤

جاء الأربعاء، والتقيا جلستْ بقربه وَضَعَ على يدها قبلةً روتينيةً. بدأ يتحدث عن طفولته، وعن والدته التي توفيتْ منذ زمن بعيد حَدّثَها عن والده الذي حاول تعويضَ حنان الأم بالقسوة عليهم.

---

* - كاتبة من الإمارات العربية المتحدة. وهذه القصة هي جزء من «دردشيّات» تُعنى جميعُها بالمحادثات عبر الإنترنت.

كانت تريد أن تحكي له عن الليالي المقمرة التي أمضتها وحدها، وعن وحدتها قَبْلَه، وعن مشاعرها عندما منحتْه نفسَها. كانت تريد أن تَشْعر بأنّها هنا إلى جانبه، وأنّه يَشْعر بدنوّها منه. كانت تريد لشعور الوحدة أن يُطْلق سراحَها. لكنْ لم يكن هناك مجال للمشاركة؛ فقد تحدّثَ وحدَه، وتحدّثَ طويلاً، وصَمْتُ جسديْهما يَتْرك فراغًا ضبابيًا بينهما. يدُها في يده، طوال الوقت، دافئةً، متوترةً، مترقبةً.. مثلَها. ولكنْ... هَرَبَتْ منها نظرةٌ إلى ساعة يدها.

٥

جاء الأربعاء، والتقيا كالعادة. جلستْ كلمة «كالعادة» بينهما. لقد كان ذلك هو لقاءهما الخامسَ، أو ربما السابعَ.

متى بدأت اللقاءات تتبنّى أرقامًا؟ قُبلاتُه بلا روح، وحديثُه يَطُول. شعرتْ بأُلفة المكان. ثمة رائحة كريهة يُطْلقها البحرُ، والغبارُ يعلو حولهما عندما يجلسان على الكنبة. شعرتْ برغبة شاذة في تنظيف المكان، أو ربما في تحضير العشاء.

يلعب بها الزمنُ: فلقد أصبحت الساعةُ الواحدةُ بمليون دقيقة.

٦

مرّ الأربعاء، دون لقاء. تحوّلَ الشوقُ إلى قلق بعد آخر أربعاء. ترى هل انتظرها هناك؟ ترى هل سينتظرها الأربعاءَ القادم؟ وهل تذهب الأربعاءَ القادم؟

ذهبتْ. وذهب. الشعورُ بالذنْب يحاصرها. ارتمت في حضنه وهي تشعر بأنّها تمثّل دورًا يتوقّعه منها. قَبّلها. خُيِّل إليها بأنّه، هو أيضًا، يلعب الدورَ المتوقّعَ منه. لم يتحدّثا عن الأسبوع الماضي. لم يتحدّثا قط. مارسا الجنسَ، أكثر ممّا مارسا الحبّ.

٧

مرّ أسبوع آخر على آخر لقاء. تمرّ الأيامُ بسرعة، بين الأربعاء والأربعاء، ويتباطأ مرورُها في ذلك اليوم تحديدًا.

لَم تذهب. توقّعتْ أن يكون هناك، بانتظارها. تألمتْ لعدم رغبتها في الذهاب. تألمتْ وهي تتخيّله في انتظارها. أسبوعان والندمُ يأكلها: ندمٌ على عدم اللقاء، وندمٌ على أول لقاء. شعرتْ أنّها تمشي إلى الأمام بظهرها، وأنّ وجهها يَنْظر إلى الخلف دائمًا.

٨

جاء يوم الأربعاء. ذهبتْ. بقيتْ في السيارة سنوات. رآها من خلف الشبّاك، وقد جعل نفسَه خيالَ شبح، راجيًا ألا تراه. لم يستطع تجديدَ قراره بالذهاب هذه المرة؛ فقد مرّت الأسابيع دون أن تكون له رغبةٌ في الذهاب، رغم أنّ التفكير بالذهاب أو بعدمه كان يَشْغله. وها هو يَنْظر إليها عبر الزجاج: ربما كانت تبكي، أو ربما كانت مترددة لأنّها لم تجده في المرات السابقة. كان بودّه أن يعتذر إليها، أن يرسل رسالة «ماسج» إليها مثلما كان يفعل في منتديات الدردشة حيث تعارفا. كان بوده أن يقول لها أن لا تَحزن، وأنّها رائعة وجميلة، وأنّها سوف تجد مَنْ هو أحقُّ منه لتمنَحَه نفسَها. كان يريد أن يكون خلف الشاشة، لا خلف الشبّاك!

شعرتْ أنّهما وصلا إلى نهاية تشاؤمية حزينة. مَنْ الذي سيُبَلِّغ الآخرَ قبل نهاية العالم بثوانٍ؟

خرجتْ من السيارة. اتجهتْ نحو الكوخ (كم كان صغيرًا وملوّثًا!). وقفتْ أمام الباب. ووقف هو خلفَ الباب، يداه على المقبض.

الإمارات العربية المتحدة